**المحاضرة الثانية : المنهج التّجريبيّ فرانسيس بيكون :**

**تتحلّى أهمّيّة العصر الحديث في تمكّن فلاسفته من صياغة مناهج فلسفيّة جديدة تتوافق مع طبيعة التّطلّع الفكريّ الّذي عرفته تلك المرحلة ، وهو التّخلّص من سلطة الكنيسة والفلسفة القديمة و من كلّ الأفكار والمسلّمات السّابقة الّتي توارثها العقل لقرون طويلة وراح يسلم بها تسليما مطلقا .**

**وكان على رأس الفلاسفة الّذين أخذوا على عاتقهم مهمّة نقض التّصوّرات والمسلمات السّابقة الفيلسوف التجريبي فرانسيس بيكون وديكارت من بعده وتبعهم بعد ذلك هوبوز وليبنتز واسبينوزا وصولا إلى كانط وهيجل وأغست كونت .**

**وقد أسفر هذا على تشييد مذاهب فلسفيّة مهمّة لا يزال أثرها قائما إلى يومنا هذا ، مع العلم أنّها بلغت من التّنوّع والاختلاف فيما بينهما ما يجعلها أكثر إبداعيّة وقيمة ، ونبدأ بالمنهج التّجريبيّ عند فرانسيس بيكون :**

**المنهج التّجريبيّ عند فرانسيس بيكون :**

**المنهج " هو عبارة عن سلسلة من المراحل المتتالية التي ينبغي إتباعها بكيفية تجريبية "[[1]](#footnote-2)، أو هو " الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسته لاكتشاف الحقيقة "**[[2]](#footnote-3)**.**

**ويعرفه عبد الرحمان بدوي بقوله:"فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ، إما من اجل الكشف عن الحقيقة حيث نكون بها جاهلين ، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين"**

**و المنهج التجريبي هو الّذي يؤسّس للمعرفة انطلاقا من تجربة الحواسّ ، هذه الأخيرة يجب أن تكون قائمة على الملاحظة والتّجربة بطريقة استقرائيّة ، فقد أدرك فرانسيس بيكون ضرورة المنهج في المعرفة وضرورة وضع أدوات للعقل : ومن ذلك قوله : " ليس لليد وحدها ولا للعقل وحده أيّة قدرة تذكّر . إنّما يجري العمل بالأدوات والعُدَد ، تلك الّتي يحتاجها الفكر بقدر ما تحتاجها اليد . ومثلما تقوم أدوات اليد بحفز حركتها وترشيدها ، كذلك تقوم أدوات العقل بحفز الفهم أو وقايته . "** [[3]](#footnote-4)**.**

**وعليه انطلق فرانسيس بيكون في منهجه التجريبي من نقد الفلسفة الأرسطيّة ، هذه الأخيرة الّتي جعلت المعرفة مرتبطة بالكلّيّات فقط ، أي بالماهيات ووجّهت كلّ بحثها نحو الجوهر الّذي من خصائصه الثّبات والكلّيّة ، وبالتّالي كانت حقيقة الأشياء في الجوهر ، أمّا الأعراض فهي متغيّرة موجودة بغيرها ومن ثمّة فهي لا تمثّل الحقيقة ، ولا تؤثّر في طبيعة الحقيقة الكلّيّة الثّابتة .**

**على أساس ذلك قام فرانسيس بيكون بنقد القياس الأرسطيّ الّذي اعتبره عاجزا عن الوصول إلى المعرفة ، لأنّه تحصيل حاصل فقط ؛ فالنّتائج الّتي يصل إليها كانت موجودة سلفا في المقدّمات. وبالتّالي هو منطق صوري ينطلق من مجموعة التّصوّرات ويصل إلى تصوّرات أخرى فقط ، فهو علم يؤسّس معرفته على المجرّد فقط ،دون إدراك العالم الخارجيّ وبعيدا عن المشاهدة العينيّة والتّجربة الحسّيّة ، لذلك لا يمكنه أن يحلّ مشاكل العلوم الطّبيعيّة ، ولا أن يكون منهجا لها ، وعليه يمكن أن نلخص منهج فرانسيس بيكون فيما يلي:**

**كما بينا أعلاها أن مبدأ بيكون في وضع منهجه هو نقد الأفكار السابقة التي كانت راسخة في العقول ، والتي هي في نظره سبب أزمة وعدم تطور العلوم ، لذلك جاء عملة منظما قائما على أساسين : الأول هو النقد ، وقد تجلى ذلك في نظريته المشهورة بالأوهام ، أما الأساس الثاني فهو جانب البناء وترتيب خطوات المنهج الاستقرائي التي على العقل أن يتبعها للوصول إلى الحقيقة، وفي ما يلي نعرض لنظرية الأوهام الأربعة عند فرانسيس بيكون الّتي يتكلّم عنها في كتابه الأرغانون الجديد ، وهي على النّحو التّالي:**

**1/نظرية الأوهام الأربعة عند فرانسيس بيكون :**

**أ- أوهام القبيلة :**

**يقول فرانسيس بيكون في الأورغانون : " أوهام القبيلة " ( أوهام الجنس ) مبيّتة في الطّبيعة البشريّة وفي القبيلة البشريّة نفسها أو الجنس البشريّ نفسه . فالرّأي القائل بأنّ حواسّ الإنسان هي مقياس الأشياء إنّما هو رأي خاطئ . فالإدراكات جميعا ، الحسّيّة والعقليّة هي على العكس ، منسوبة إلى الإنسان و ليس إلى العالَم . والذّهن البشريّ أشبه بمرآة غير مستوية تتلقّى الأشعّة من الأشياء وتمزج طبيعتها الخاصّة بطبيعة الأشياء فتشوّهها وتفسدها "**[[4]](#footnote-5) **.**

**نفهم مما سبق أن " أوهام القبيلة " هي الأفكار الخاطئة الّتي توجد في العقل ، وهي موجودة عند جميع البشر ، وتتمثّل عموما في إصدار الأحكام دون التّدرّج في نقدها واعتماد الأحكام الكلّيّة واقتصار العقل على مجموعة من الأفكار السابقة الراسخة في فيه ، والتّأسيس من خلالها للمعرفة دون البحث عن مدى صدقها ، وهو ما يسهم في الابتعاد عن الموضوعيّة والدّقّة في البحث ، " ومن هذه الأوهام :" الميل إلى افتراض نظام واطراد في العالم أكثر ممّا هو موجود فيه بالفعل ، ولذلك اعتقد العلماء أنّ الأجرام السّماويّة تتحرّك في دوائر كاملة ، وأنّ نسبة كثافة ما سمّي بالعناصر تساوي عشرة إلى واحد ".**[[5]](#footnote-6)

**ب - أوهام الكهف :**

**أمّا أوهام الكهف فيما يقول فرانسيس بيكون هي : " الأوهام الخاصّة بالإنسان الفرد . إنّ لكلّ فرد ، بالإضافة إلى أخطاء الطّبيعة البشريّة العامّة ،كهفا أو غارا خاصّا به يعترض ضياء الطبيعة ويشوهه . قد يحدث هذا بسبب الطّبيعة الفريدة والخاصّة لكلّ إنسان ، أو بسبب تربيته وصلاته الخاصّة ، أو قراءاته ونفوذ أولئك الّذين يكنّ لهم الاحترام والإعجاب أو لاختلاف الانطباعات الّتي تتركها الأشياء في أذهان مختلفة : في ذهن قلق متحيّز ، أو ذهن رصين مطمئنّ ... إلخ "**[[6]](#footnote-7) **.**

**إن أوهام الكهف عند فرانسيس بيكون هي الحيّز الفكريّ والثّقافيّ والدّينيّ الّذي كوّن عقل كلّ شخص لوحده ، فهي أوهام خاصّة وفرديّة عكس الأوهام القبليّة ، وهي الّتي تحدّد توجّهه الفكريّ وفهمه للأشياء التي من حوله .**

**ج - أوهام السّوق :**

**يقول بيكون :" ثمّة أيضا أوهام تنشأ عن تواصل النّاس واجتماعهم بعضهم ببعض ، والّتي أسمّيها " أوهام السّوق " ، بالنّظر إلى ما يجري بين النّاس هناك من تبادل واجتماع ، فالنّاس إنّما تتحادث عن طريق القول ، والكلمات يتمّ اختيارها بما يلائم فهم العامّة . وهكذا تنشأ مُدَوَّنَةٌ من الكلمات سيّئة بليدة تعيق العقل إعاقة عجيبة ... إعاقة لا تُجدي فيها التّعريفات والشّروح الّتي دأب المثقّفون على التّحصّن بها أحيانا : فما تزال الألفاظ تنتهك الفهم بشكل واضح وتوقع الخلط في كلّ شيء ، وتوقع النّاس في مجادلات فارغة ومغالطات لا حصر لها"**[[7]](#footnote-8) **.**

**إن هذه الأوهام ترتبط باللّغة والألفاظ الّتي يستعملها الإنسان ولكنّ الخطر في كونها قد تؤدّي مهمّة خاطئة وقد تعبّر عن أشياء غير صحيحة ، خاصّة عندما نعبّر عن الأشياء بألفاظ مبهمة وملتبسة وغير واضحة أو حاملة لمعاني متعدّدة ، فهذا يجعل العقل في حيرة ويسهّل الوقوع في الخطأ والظّلال . ويفقد اللّغة دلالتها الحقيقيّة وقيمتها ، ومن ثمّة تصبح غير صالحة للتّعبير عن الحقيقة العلمّيّة .**

**د- أوهام المسرح :**

**" هي تلك الأوهام الّتي انسربت إلى عقول البشر من المعتقدات المتعدّدة للفلسفات المختلفة ، وكذلك من القواعد المغلوطة للبرهان ؛ وهذه أسمّيها " أوهام المسرح " ذلك أنّي أعتبر أنّ كلّ الفلسفات الّتي تعلّمها النّاس وابتكروها حتّى الآن هي أشبه بمسرحيّات عديدة جدّا تُقدَّم وتُؤدَّى على المسرح ، خالقة عوالم من عندها زائفة وهميّة... ولا ينسحب حديثي عن الفلسفات الكلية ، وإنما أُشمل أيضا كثيرا من العناصر والمبادئ الخاصة بالعلوم ، والتي اكتسبت قوتها الاقناعيّة من خلال التّقليد والتّصديق السّاذج والقصور الذّاتيّ "** [[8]](#footnote-9)**ص 31**

**يشبّه فرانسيس بيكون العقل هنا بخشبة المسرح الّتي تُعرض عليها آراء وأفكار العلماء والمشاهير المتعدّدة والمختلفة ، والّتي قد تكون متناقضة فيما بينها ، ومن خلالها يقع العقل في الخطأ ، هذا إضافة الأفكار اللّاهوتيّة الّتي ارتبطت في كثير من الأحيان ببعض التّفسيرات الخرافيّة والأسطوريّة ، والّتي تلعب هي الأخرى دور المضلّل فيصاب العقل بالتّحجّر والتّعصّب ومنه يصعب عليه معرفة الحقيقة .**

**2/خطوات المنهج الاستقرائي عند فرانسيس بيكون :**

**هو منهج في المعرفة يضعه فرانسيس بيكون كبديل عن منطق أرسطو ، يؤسّس من خلاله أصول المنهج العلميّ بشكل منظّم ومرتّب في العصر الحديث ، إذ يتّجه من خلاله نحو العلم الطّبيعيّ القائم على التّجربة والملاحظة دون إهمال مبدأ العقل في التّفكير والتّمحيص والتّحليل والتّركيب كذلك .**

**وهذا كلّه كبديل عن عقل العصور الوسطى المحجوز بالأوهام كما بيّنّا .**

**يمكن أن نسمّي الأوهام بالجانب السّلبيّ ، أمّا الجانب الإيجابيّ فيكمن في المنهج الّذي يقوم على أربع مراحل أساسية يجب على العقل أن يتبعها بالترتيب ، يُفصل فيها فرانسيس بيكون في كتابه الأورغانون الجديد ، وهي على النحو التالي :**

**أ - الملاحظة وجمع المعلومات :**

**يشرح بيكون خطوات المنهج الأربعة من خلال توظيف مثال ، وهو ظاهرة الحرارة ، إذ يبدأ أوّلا بملاحظتها وتجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها ، فالحرارة موجودة في أجسام كثيرة وغير موجودة في أجسام أخرى ، ومختلفة الدّرجة من ظاهرة إلى أخرى . بعد هذه الملاحظة والتّجميع للمعلومات ينتقل إلى المرحلة الثّانية .وهي :**

**ب - ترتيب المعلومات : تقوم بدورها على خطوات تنحصر في ثلاث قوائم : - قائمة الحضور والإثبات .- قائمة الغياب أو النّفي . – قائمة التّفاوت في الدّرجات .**

**أمّا في قائمة الحضور والإثبات يجمع فيها الأجسام الّتي حضرت فيها ظاهرة الحرارة ، ثمّ بعد هذا التّصنيف يقوم بخطوة إحصاء الأجسام الباقية من بين جميع الأجسام الملاحظة والتي لا تحضر فيها ظاهرة الحرارة ويضعها في قائمة الغياب أو النفي ، ثم ينتقل إلى آخر خطوة في المرحلة الثانية ( أي ترتيب المعلومات) ويُكون قائمة يبين من خلالها تفاوت الحرارة في الأجسام التي حضرت فيها الظاهرة ويضعها في قائمة التّفاوت في الدّرجات.**

**في هذه المرحلة يخلص إلى وضع قوائم مفصلة ومرتبة تتضمن كل واحدة منها الحالات المتشابهة في الحضور أو الغياب أو التفاوت ، وعندئذ ينتقل إلى المرحلة الثالثة من المنهج وهي مرحلة التحليل .**

**ج- تحليل البيانات الواردة في قوائم : تتجه هذه الخطوة نحو الدقة والتفصيل ، بحث يقوم العالم بعرض جميع القوائم المتحصل عليها ، ثم يفسر سبب ونسبة الحرارة في كل جسم من الأجسام ، فالحالات الواردة في قائمة الحضور فسرها فرانسيس بيكون بمبدأ الحركة ، إذ الأجسام التي هي في حالة حركة تنتج حرارة ، ويؤكد ذلك من خلال القائمة الثانية التي تضم الأجسام التي تغيب فيها ظاهرة الحرارة بأنها خالية من الحركة أو الحركة ضعيفة فيها فلا تتولد الحرارة .**

**ومنه استنتج أن الحركة تنتج الحرارة ، ثم انتقل إلى القائمة الثالثة التي خلص من خلالها إلى أن الأجسام كلما زادت فيها الحركة زادت فيها الحرارة ، والعكس صحيح ، ومنه وصل إلى آخر مرحلة وهي التي يستنتج فيها القانون العلمي .**

**د - مرحلة تفسير الظاهرة : فيها يتم استنتاج القانون العلمي ، وهو في المثال: الحركة علة الحرارة**

1. - موريس أنجرس ،ص [↑](#footnote-ref-2)
2. .موريس أنجرس ،ص [↑](#footnote-ref-3)
3. - فرانسيس بيكون ،الاورغنون الجديد ، ص16. [↑](#footnote-ref-4)
4. - فرانسيس بيكون في الأورغانون ،29. [↑](#footnote-ref-5)
5. وليام كلي رايت ،تاريخ الفلسفة الحديثة ،ترجمة محمود سيد أحمد ، تقديم ومراجعة امام عبد الفتاح امام ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ،طبعة أولى 2010،بيروت ، ص68. [↑](#footnote-ref-6)
6. - فرانسيس بيكون في الأورغانون ،ص 30 . [↑](#footnote-ref-7)
7. - فرانسيس بيكون في الأورغانون ،ص 30. [↑](#footnote-ref-8)
8. - فرانسيس بيكون في الأورغانون ، ص 311. [↑](#footnote-ref-9)